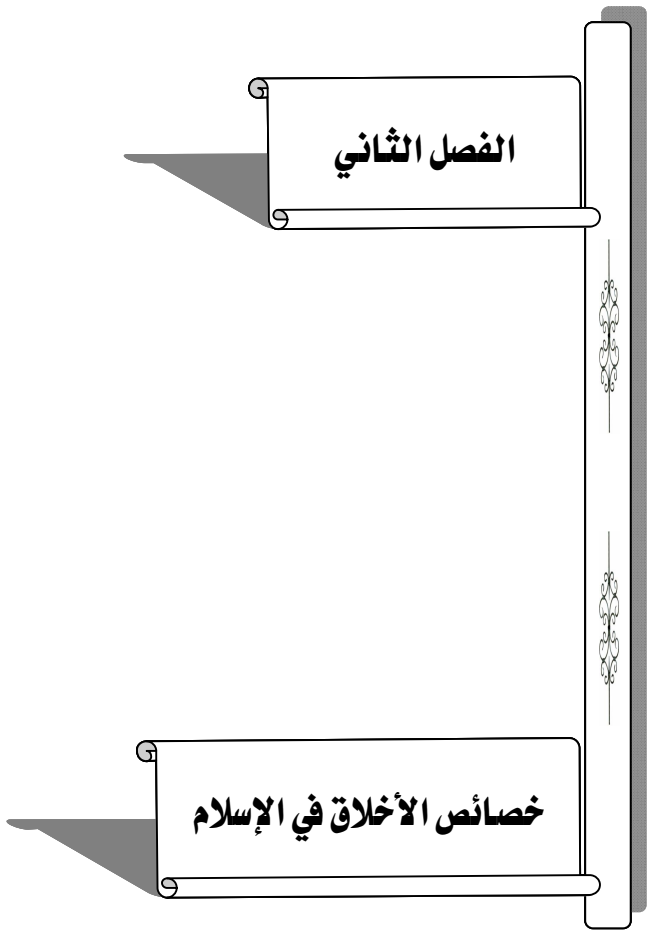
الفصل الثاني
خصائص الأخلاق في الإسلام

خصائص الأخلاق في الإسلام

ما الأخلاق ؟

الخُلُق في اللغة : معناه الطبع والسجية والدين ، والخُلُق ميل يغلب علي الإنسان باستمرار حتى يصير له عادة .

تعرِّف بعض معاجم اللغة العربية الحديثة الأخلاق بأنها :

مجموعة صفات نفسية وأعمال الإنسان التي توصف بالحُسْن أو القُبْح.

وعلم الأخلاق : أحد أقسام الفلسفة وهو علم نظريّ يحدِّد مبادئ عمل الإنسان في العالَم ، وغرضه تحديد الغاية العليا للإنسان ، أو هو علم بالفضائل وكيفية التحلِّي بها ، والرذائل وكيفيّة تجنّبها .

وقيل الخلق هو : قوة راسخة في الإرادة تنزع إلي اختيار ما هو خير وصلاح. إن كان الخلق حميداً. أو إلي اختيار ما هو شر وفساد إن كان الخلق ذميماً . (١)

هل الأخلاق نسبيَّة أم مُطلقة ؟

يدَّعي البعض أنَّ الأخلاق أمور اعتبارية نسبية لا ثبات لها، تختلف من مكان إلى مكان، ومن زمان إلى زمان، ومن أمة إلى أمة. فالذي يُعْتَبَر منافيًا للأخلاق عند شعب من الشعوب، لا يعتبر منافيًا للأخلاق

(١) د. بدر عبد الحميد هميسه " الأخلاق في الإسلام " موقع صيد الفوائد .

عند شعب آخر، وبعض ما كان مُسْتَنْكَرًا فيما مضى قد يعتبر مُسْتَحْسَنًا في عصر آخر، فالأخلاق عند هؤلاء مفاهيم اعتبارية تتواضع عليها الأمم والشعوب، وليس لها ثبات في حقيقتها .

وإنَّ أسباب الخطأ عند أصحاب فكرة نسبية الأخلاق ، ترجع إلى ثلاثة:

الأول : تعميمهم اسم الأخلاق على أنواع كثيرة من السلوك الإنساني، فلم يميزوا الظواهر الخُلُقِيَّة، عن الظواهر الجَمَالِيَّة والأدَبِيَّة، وعن العادات والتقاليد الاجتماعية ، وعن التعاليم والأحكام المَدَنِيَّة أو الدِينِيَّة البحتة، فحشروا مفردات كل هذه الأمور تحت عنوان الأخلاق، فأفضى ذلك بهم إلى الخطأ الأكبر، وهو حكمهم على الأخلاق بأنها أمور اعتبارية نسبية .

الثاني: أنهم جعلوا مفاهيم الناس عن الأخلاق مصدرًا يرجع إليه في الحكم الأخلاقي، مع أنَّ في كثير من هذه المفاهيم أخطاء فادحة، وفسادًا كبيرًا، يرجع إلى تحكُّم الأهواء والشهوات والعادات والتقاليد فيها، ويرجع أيضًا إلى أمور أخرى غير ذلك، والتحرِّي العلمي يطلب من الباحثين أن يتتبعوا جوهر الحقيقة، حيث توجد الحقيقة، لا أن يحكموا عليها من خلال وجهة نظر الناس إليها، فكل الحقائق عرضة لأن يثبتها مثبتون، وينكرها منكرون، ويتشكك بها مُتَشَكِّكون، ويتلاعب فيها متلاعبون، ومع ذلك تبقى على ثباتها، لا تؤثر عليها آراء الناس فيها .

الثالث: اعتمادهم على أفكارهم وضمائرهم فقط، وجعلها المقياس الوحيد الذي تُقَاس به الأخلاق .

أما مفاهيم الإسلام فإنها قد مَيَّزت الأخلاق عما سواها، وميزت السلوك الأخلاقي عن سائر أنواع السلوك الإنساني، فلم تعمم تعميمًا فاسدًا، ولم تدخل في مفردات الأخلاق ما ليس منها، وهي أيضًا لم تعتمد على مفاهيم الناس المختلفة، ولم تتخذها مصدرًا يرجع إليه في الحكم الأخلاقي، وأما العقل والضمير فإنها لم تهملهما وإنما قرنتهما بعاصم يردهما إلى الصواب كلما أخطأ سبيل الحق والهداية والرشاد، وهذا العاصم هو الوحي الذي نزل بدين الله لعباده، وشرائعه لخلقه، وتعاليمه التي لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها؛ لأنهَّا تنزيل من عزيز حكيم، وقد بلغها رسله . أما صورتها المثلى المحفوظة من التغيير فهي ما ثبت في نصوص الشريعة الإسلامية، المنزلة على رسول الله محمد ﷺ وعلى سائر الأنبياء والمرسلين .

عوامل ثبات الأخلاق في الإسلام

فمن تبصَّر بالأصول العامة للأخلاق في المفاهيم الإسلامية، وتبصر بأنَّ الأخلاق الإسلامية مقترنة بالوصايا والأوامر والنواهي الربانية، وتبصر بأنَّ هذه الوصايا والأوامر والنواهي محفوفة بقانون الجزاء الإلهي بالثواب العقاب، فإنَّه لابد أن يظهر له بجلاء أنَّ الأخلاق الإسلامية هي حقائق في ذاتها، وهي ثابتة مادام نظام الكون ونظام الحياة ونظام الخير والشر أمورًا مستمرة ثابتة، وهي ضمن المفاهيم الإسلامية الصحيحة غير قابلة للتغير ولا للتبدل من شعب إلى شعب، ولا من زمان إلى زمان .

أما الأمة الإسلامية فهي أمة واحدة، وهي لا تتواضع فيما بينها على مفاهيم تخالف المفاهيم التي بينها الإسلام، والتي أوضحها في شرائعه ووصاياه .

وإذا رجعنا إلى مفردات الأخلاق الإسلامية وجدنا أنَّ كلَّ واحدة منها – ضمن شروطها وقيودها وضوابطها – ذات حقيقة ثابتة، وهي غير قابلة في المنطق السليم للتحوُّل من حسن إلى قبيح ، أو من قبيح إلى حسن. إنَّ حسنها حسن في كلِّ زمان، وقبيحها قبيح في كلِّ زمان، ولا يؤثر على حقيقتها أن تتواضع بعض الأمم على تقبيح الحسن منها، أو تحسين القبيح، تأثرًا بالأهواء، أو بالشهوات، أو بالتقاليد العمياء .

إنَّ الإسلام يقرر أنَّ حبَّ الحقِّ وكراهية الباطل فضيلة خلقية، ويقرر أنَّ كراهية الحقِّ وحبَّ الباطل رذيلة خلقية، فهل يشكُّ أحد سَوِيٌّ عاقل في أنَّ هذه الحقيقة حقيقة ثابتة غير قابلة للتحول ولا للتغير، وإن تواضع على خلافها جماعة ذات أهواء ؟! وهكذا سائر الأمثلة الأخلاقية الإسلامية . [1]

الصفات النبي ﷺ قبل البعثة وبعدها

كان النبي ﷺ مثلاً أعلى في حسن الخلق قبل بعثته وبعد بعثته فقد كان أحسن الناس خلقاً وأكثرهم محبة ورأفة ورحمة وأصدقهم حديثاً وأوفاهم عهداً وذمة ، من رآه هابه ومن خالطه أحبه ، لقد وصفت

(١) موسوعة الأخلاق مؤسسة الدرر السنية ١٤٣٦ هـ

قريش النبي ﷺ بأنه صادق وأمين " اختصمَتْ قريشٌ في الركنِ أيُّ القبائلِ تلي رفعَه فقالوا تعالَوا نُحكِّمْ أولَ من يطلع علينا فطلع عليهم رسولُ اللهِ ﷺ وهو غلامٌ عليه وِشاحٌ نَمِرةٌ فحكَّموه فأمر بالركنِ فوُضِع في ثوبٍ ثم خرج سيِّدُ كلِّ قبيلةٍ فأعطاه ناحيةً من الثوبِ ثم ارْتقى هو فرفعوا إليه الركنَ فكان هو يضعُه فكان لا يزدادُ على السِّنِّ إلا رضى حتى دعوه الأمينَ قبل أن يَنزلَ عليه الوحيُ فطفِقوا لا ينحرون جَزورًا إلا التمَسوه فيدعو لهم فيها " [دلائل النبوة للبيهقي وله شواهد في الصحيح]

ولقد كان السَّبب في زواجه ﷺ بخديجة رضي الله عنها هو الأمَانَة، فقد تاجر ﷺ في مال خديجة قبل البعثة، وقد اتَّصف في تجارته بصدق الحديث، وعظيم الأمَانَة، فعَنِ ابْنِ إِسْحَاقَ قَالَ " كَانَتْ خَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ امْرَأَةً تَاجِرَةً ذَاتَ شَرَفٍ وَمَالٍ تَسْتَأْجِرُ الرِّجَالَ فِي مَالِهَا وَتُضَارِبُهُمْ إِيَّاهُ بِشَيْءٍ تَجْعَلُهُ لَهُمْ مِنْهُ وَكَانَتْ قُرَيْشٌ قَوْمًا تُجَّارًا فَلَمَّا بَلَغَهَا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنْ صِدْقِ حَدِيثِهِ وَعَظِيمِ أَمَانَتِهِ وَكَرَمِ أَخْلَاقِهِ بَعَثَتْ إِلَيْهِ فَعَرَضَتْ عَلَيْهِ أَنْ يَخْرُجَ فِي مَالِهَا تَاجِرًا إِلَى الشَّامِ وَتُعْطِيهِ أَفْضَلَ مَا كَانَتْ تُعْطِي غَيْرَهُ مِنَ التُّجَّارِ مَعَ غُلَامٍ لَهَا يُقَالُ لَهُ : مَيْسَرَةُ فَقَبِلَهُ مِنْهَا رَسُولُ اللَّهِ وَخَرَجَ فِي مَالِهَا ذَلِكَ وَمَعَهُ غُلَامُهَا مَيْسَرَةُ " (١)

ولمَّا عاد إلى مكَّة، وقصَّ عليها ميسرة أخبار محمَّد ﷺ قررت الزَّواج به .

وعندما جاءه الوحي وخشي على نفسه قالت له أم المؤمنين خديجة : " أَبْشِرْ، فواللَّهِ لا يُخْزيك اللَّهُ أبدًا، إنك لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَصْدُقُ الحديثَ، وَتَحْمِلُ الكَلَّ، وَتَقْري الضيفَ، وَتُعينُ عَلَى نَوائبِ الحَقِّ " [متفق عليه]

(١) سيرة ابن إسحق ج ١ ص ٥٩ .

وعندما نزَلَ قوله تعالى ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء:٢١٤] صَعَدَ النبيُّ ﷺ على الصَّفا ، فجَعَل يُنادي: فلما جاءت قريش قال لهم : " أَرَأَيْتَكم لو أَخْبَرْتُكم أن خيلاً بالوادي تريدُ أن تُغِيرَ عليكم أَكُنْتُم مُصَدِّقِيَّ؟ قالوا : نعم ، ما جَرَّبْنَا عليك إلا صدقًا . قال : فإني نذيرٌ لكم بينَ يَدَيْ عذابٍ شديدٍ " [صحيح البخاري] .

وهكذا شهد له أهله وقومه بالصدق في كل حياته في الصغر والكبر ، وفي كل حالاته في الرضا والسخط ، ومع كل الناس : من يعرف ومن لا يعرف ، ومن آمن به ومن لم يؤمن "ما جَرَّبْنَا عليك إلا صدقًا " .

ولقد حدَّد الله تعالى الغاية من بعثة النبي ﷺ فقال : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء:١٠٧] وحدد النبي ﷺ الغاية من بعثته فقال " إنما بُعِثتُ لأتمِّمَ مكارمَ الأخلاقِ " [صححه الألباني] فلا عجب أن تكون الأخلاق قاسم مشترك في أصول الدين وفروعه ، فإذا كان الإسلام عقيدة وشريعة وكانت غاية العقيدة توحيد الله وحسن عبادته فإن غاية شريعة الإسلام هي حسن الخلق .

فلا عجب إذن أن الله تعالى عندما يثني على عبده ورسوله محمد ﷺ يقول ﴿وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم : ٤] وأن يجعل أساس قبول الصحابة لدعوة النبي حسن خلقه فهو الصادق الأمين وأن غاية شريعته حسن السلوك والمعاملة {فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ القَلْبِ لانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ المُتَوَكِّلِينَ﴾
[آل عمران : ١٥٩]

وعندما يسأل النجاشي ملك الحبشة جعفر بن أبي طالب عن الدين الذي يؤمن به وهاجر من بلاده في سبيله ما ذكر إلا التوحيد وحسن الخُلُق فعن أم سلمة هند بنت أبي أمية قالت " دَعَا النَّجَاشِيُّ أَسَاقِفَتَهُ فَنَشَرُوا مَصاحِفَهُمْ حَوْلَهُ سَأَلَهُمْ فقال ما هذا الدِّينُ الذي قَدْ فَارَقْتُمْ فِيهِ قَوْمَكُمْ ولَمْ تَدْخُلُوا في دِينِي ولا في دِينِ أَحَدٍ من هذه الأُمَمِ؟

قالتْ وكَانَ الذي كَلَّمَهُ جَعْفَرُ بنُ أبي طَالِبٍ قال أَيُّهَا المَلِكُ كُنَّا قَوْمًا أَهْلَ جَاهِلِيَّةٍ نَعْبُدُ الأَصْنَامَ ونَأْكُلُ المَيْتَةَ ونَأْتِي الفَوَاحِشَ ونَقْطَعُ الأَرْحامَ ونُسِيءُ الجِوَارَ ويَأْكُلُ القَوِيُّ مِنَّا الضَّعِيفَ فَكُنَّا على ذلك حتى بَعَثَ اللهُ إِلَيْنَا رَسُولا مِنَّا نَعْرِفُ نَسَبَهُ وصِدْقَهُ وأَمَانَتَهُ وعَفَافَهُ فَدَعَانَا إلى اللهِ عزَّ وجلَّ ؛ لِنُوَحِّدَهُ ونَعْبُدَهُ ونَخْلَعَ ما كُنَّا نَعْبُدُ نَحْنُ وآباؤُنَا من دُونِ اللهِ من الحِجَارَةِ والأَوْثَانِ وأَمَرَنَا بِصِدْقِ الحَدِيثِ وأَدَاءِ الأَمَانَةِ وصِلَةِ الرَّحِمِ وحُسْنِ الجِوَارِ والْكَفِّ عَنِ المَحارِمِ والدِّمَاءِ ونَهَانَا عَنِ الفَوَاحِشِ وشَهَادَةِ الزُّورِ وأَكْلِ مَالِ اليَتِيمِ وقَذْفِ المُحْصَنَةِ وأَمَرَنَا أَنْ نَعْبُدَ اللهَ لا نُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا وإِقَامَ الصَّلاةِ وإِيتاءَ الزَّكَاةِ – قالتْ فَعَدَّدَ عليْه أُمُورَ الإِسْلامِ – فَصَدَّقْنَاهُ وآمَنَّا بِهِ واتَّبَعْنَاهُ على ما جَاءَ بِهِ فَعَبَدْنَا اللهَ وحْدَهُ لا نُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا وحَرَّمْنَا ما حَرَّمَ عَلَيْنَا وأَحْلَلْنَا ما أَحِلَّ لنا فَعَدَا عَلَيْنَا قَوْمُنَا فَعَذَّبُونَا وفَتَنُونَا عن دِينِنَا ؛ لِيَرُدُّونَا إلى عِبادَةِ الأَوْثَانِ من عِبادَةِ اللهِ عزَّ وجلَّ وأَنْ نَسْتَحِلَّ ما كُنَّا نَسْتَحِلُّ من الخَبائِثِ فَلَمَّا قَهَرُونَا وظَلَمُونَا وشَقُّوا عَلَيْنَا وحالُوا بَيْنَنَا وبَيْنَ دِينِنَا خَرَجْنَا إلى بَلَدِكَ واخْتَرْنَاكَ على مَنْ سِوَاكَ ورَغِبْنَا في جِوَارِكَ ورَجَوْنَا أَنْ لا نُظْلَمَ عِنْدَكَ أَيُّهَا المَلِكُ .

قالتْ فقال النَّجَاشِيُّ هل مَعَكَ مِمَّا جَاءَ بِهِ عَنِ اللهِ من شَيْءٍ؟ قالتْ فقال لَهُ جَعْفَرٌ نَعَمْ قالتْ فقال لَهُ النَّجَاشِيُّ فَاقْرَأْهُ فَقَرَأَ عليْه صَدْرًا من

{كهيعص} [مريم : ١] قالتْ فَبَكَى واللهِ النَّجَاشِيُّ حتى أَخْضَلَ لِحْيَتَهُ وبَكَتْ أَسَاقِفَتُهُ حتى أَخْضَلُوا مَصاحِفَهُمْ حِينَ سَمِعُوا ما تَلَا عَلَيْهِمْ ثمَّ قال النَّجَاشِيُّ إِنَّ هذا واللهِ والَّذِي جَاءَ بِهِ موسى لَيَخْرُجُ من مِشْكَاةٍ واحِدَةٍ انْطَلَقَا فَوَاللَّهِ لا أُسَلِّمُهُمْ إِلَيْكُمْ أَبَدًا " [صحيح أحمد] .

والملاحظ أن جعفر بن أبي طالب ما وصف الجاهلية إلا بالشرك وسوء الخلق وما وصف نبي الإسلام ﷺ إلا بحسن الخلق ، وما جعل غاية دعوته إلا توحيد الله وحسن الخلق .

خصائص الأخلاق الإسلامية

للأخلاق الإسلامية سمات تميزها عن مفهوم الأخلاق في سائر المذاهب والفلسفات نحاول الآن أن نُجْمِل أهمها وسوف نعود في فصول تالية لتفصيل القول في بعض هذه الخصائص :

أولًا : الأخلاق الإسلامية ربانية المصدر :

الأخلاق الإسلامية مصدرها كتاب الله وسنة نبيه ﷺ ولا دخل فيها للآراء البشرية إلا للبيان والتوضيح بخلاف النظم الوضعية ، أو الأفكار الفلسفية ؛ لذا اتَّسمت الأخلاق الإسلامية بسمات : الخيرية المطلقة ، والخلود الأبدي ، والمناسبة لكل خلق الله في كل زمان ومكان وحال ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الخَبِيرُ﴾ [الملك:١٤]

يقول ابن القيم " إِن الشَّرِيعَة مبناها وأساسها على الحكم ومصالح الْعباد، فِي المعاش والمعاد، وَهِي عدل كلهَا، وَرَحْمَة كلهَا، ومصالح كلهَا، وَحِكْمَة كلهَا، فَكل مَسْأَلَة خرجت عَن الْعدْل إِلَى الْجور، وَعَن

الرَّحْمَة إِلَى ضدها، وَعَن الْمصلحَة إِلَى الْمفْسدَة، وَعَن الْحِكْمَة إِلَى الْعَبَث فليستْ من الشَّرِيعَة، وإِنْ أُدخلتْ فِيهَا بالتأويل، فالشريعة عدل الله بَين عباده، وَرَحمته بَين خلقه، وظله فِي أرضه وحكمته الدَّالَّة عَلَيْهِ وعَلى صدق رَسُوله صلى الله عَلَيْهِ وَسلم أتم دلَالَة وَأصْدقهَا" . " [1]

الأخلاق الإسلامية إذن محددة بضوابط الشريعة وليست متروكة لأهواء الناس الحسن في نظر المسلم هو ما حسنة الشرع والقبيح هو ما قبحه الشرع بخلاف من قال الحسن من حسنه العقل ، والقبيح ما قبحه العقل كما زعم المعتزلة ، والعقل إذا غلب عليه الهوى انحرف وحسن القبيح وقبح الحسن ، وانظر إلى أخلاق الجاهلية يتأكد لك ذلك فشرب الخمر والزنا والظلم ووأد البنات والإغارة على الآمنين ليس قبيحاً والمفاخرة بالحسب والنسب وغير ذلك .

وَمَنْ لَمْ يَذُدْ عَنْ حَوْضِهِ بِسِلاحِهِ * يُهَدَّمْ وَمَنْ لا يَظْلِمْ النَّاسَ يُظْلَمِ

فالهوى يفسد تحسين العقل إما الشرع الحكيم فمنزه عن الهوى والمؤمن الحق يكون هواه وفق ما شرع الله مصداقاً لقول النبي ﷺ : " لا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يَكُونَ هَوَاهُ تَبَعًا لِمَا جِئْتُ بِهِ " [صحيح البيهقي] .

ثانيًا: الشمول والتكامل:

من خصائص الأخلاق الإسلامية: أنها شاملة، ومتكاملة، وهي خاصية منبثقة من الخاصية الأولى، وهي الربانية، وذلك لأنها تراعي

([1]) ابن القيم " إعْلَام الموقعين " ج ٣ ص ١٤ ، ١٥ .

الإنسان، والمجتمع الذي يعيش فيه، وأهداف حياته طبقا للتصور الإسلامي، تحدد أهداف الحياة وغايتها وما وراءها، وتشمل كافة أنشطة الإنسان وتوجهاته، وتستوعب حياته كلها من جميع جوانبها، ثم هي أيضًا لا تقف عند حدِّ الحياة الدنيا.

فالأخلاق في الإسلام عامة لا تشمل المؤمنين فقط بل تشمل جميع خلق الله تعالى : الإنسان ، المؤمن والكافر ، الطائع والعاصي ، الصديق والعدو ، المرأة والرجل ، الصغير والكبير ، الحر والعبد ، القريب والبعيد ، والإنس والجن ، والحيوان ، والطير ، والنبات ، وحتى الجماد . والأخلاق في الإسلام لا تقتصر على الدنيا إنما تشمل الدنيا والآخرة .. أخلاق لا مثيل لها على كثرة ما عَرَف الناس من أخلاق .

ثالثًا: الأخلاق الإسلامية صالحة لكل زمان ومكان :

لما كانت الأخلاق الإسلامية ربانية المصدر، كانت صالحة لجميع الناس في كلِّ زمان، وفي أيِّ مكان، نظرًا لما تتميز به من خصائص، فلا يطرأ عليها أي تغيير أو تبديل بسبب تغير الظروف والأزمان؛ لأنها ليست نتاجًا بشريًّا، بل هي وحي من الله تعالى لنبيه.

فالأخلاق الإسلامية ثابتة لا تتغير الزمان أو المكان فبر الوالدين واجب أبدى ، والكرم خلق دائماً والصدق لا تغيره المفاهيم المادية السائدة في المجتمع .

وهذا بخلاف من يزعم بأن الأخلاق نسبية ، وأنها انعكاس للأوضاع المادية والاقتصادية وهي من صنع العقل الجماعي وأنها أي الأخلاق تتغير على الدوام وحسب الظروف وِفْق الفكر الماركسي .

رابعًا: الإقناع العقلي والوجداني :

تشريعات الإسلام توافق العقول الصحيحة، وتتواءم مع الفطر السليمة، وتحصل القناعة الكاملة والانسجام التام مع ما أتت به الشريعة الإسلامية من نظم أخلاقية.

فالأخلاق الإسلامية بها يقنع العقل السليم، ويرضى بها القلب، فيجد الإنسان ارتياحًا واطمئنانًا تجاه الحسن من الأخلاق، ويجد نفرة وقلقًا تجاه السيئ من الأخلاق.

خامسًا: المسئولية :

الأخلاق الإسلامية تجعل الإنسان مسئولاً عما يصدر منه في كلِّ جوانب الحياة، سواء كانت هذه المسئولية مسئولية شخصية، أم مسئولية جماعية، ولا تجعله اتكاليًّا لا يأبه بما يدور حوله من أشياء، وهذه خاصية من خصائص أخلاقنا انفردت بها الشريعة الغراء.

ونعني بالمسئولية الشخصية: أن الإنسان مسئول عما يصدر منه عن نفسه إن كان خيرًا فخير، وإن كان شرًّا فشر، وفي هذا الصدد يقول الله تعالى : ﴿ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴾ [الطور: ٢١]

ويقول تعالى : ﴿وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ﴾ [النساء: ١١١] ويقول تعالى : ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً ﴾ [الإسراء: ٣٦] .

فهذه الآيات وغيرها تبين لنا مدى المسئولية التي تقع على عاتق الإنسان عما يصدره منه عنه نفسه. ويقول ﷺ " وإنَّ العبدَ ليتكلَّمُ بالكلمةِ

من سخطِ اللهِ ، لا يُلقي لها بالًا ، يهوي بها في جهنَّمَ " [صحيح البخاري]

، يقول ابن حجر في شرح الحديث: " لا يلقي لها بالًا " : أي: لا يتأمل بخاطره، ولا يتفكر في عاقبتها، ولا يظنُّ أنَّها تؤثر شيئًا ، فقبل أن تخرج الكلمة من فيك، أعط نفسك فرصة للتفكير، هل ما ستقوله يرضي الله أم يغضبه؟ هل تكون عاقبته خيرًا أم شرًّا؟ وطالما لم تخرج فأنت مالكها، فإذا خرجت كنت أسيرها، وإذا كان هذا في الكلام ففي سائر التصرفات من باب أولى.

ونعني بالمسئولية العامة (الجماعية): تلك المسئولية التي تراعي الصالح العام للناس، فلا يكون الرجل إمعة متكاسلًا ...أو سلبيًّا بل عليه أن يأمر بالمعروف، وأن ينهى عن المنكر " مَن رأى مِنكُم مُنكرًا فليغيِّرهُ بيدِهِ ، فإن لَم يَستَطِع فبِلسانِهِ ، فإن لم يستَطِعْ فبقَلبِهِ . وذلِكَ أضعَفُ الإيمانِ " [صحيح مسلم]

سادسًا: العبرة بالظاهر والباطن من الأعمال معًا :

أخلاقنا الإسلامية لا تكتفي بالظاهر من الأعمال، ولا تحكم عليه بالخير والشر بمقتضى الظاهر فقط، بل يمتدُّ الحكم ليشمل النوايا والمقاصد، وهي أمور باطنية، فالعبرة إذًا بالنية، يقول رسول الله ﷺ : " إنَّما الأعمالُ بالنِّيَّاتِ وإنَّما لِكلِّ امرئٍ ما نوى فمَن كانَت هجرتُهُ إلى اللَّهِ ورسولِهِ فَهجرتُهُ إلى اللَّهِ ورسولِهِ ومن كانت هجرتُهُ لدنيا يُصيبُها أوِ امرأةٍ يتزوَّجُها فَهجرتُهُ إلى ما هاجرَ إليْهِ " [صحيح البخاري] .

والنية هي مدار التكليف، وعلى ذلك فالإسلام يراعي نية الإنسان في الحكم على عمله الظاهر.

فالأخلاق الإسلامية تشترط حسن النية لضمان الأجر فالله تعالي لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصاً لوجه الكريم صدق رسول الله ﷺ إذ يقول " إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى " [متفق عليه]

وهذه الأخلاق حينما يتمسك بها المسلم فإنها تعود علية بكل خير ،فإن الرسالة الإسلامية جاءت من أجل إتمام مكارم الأخلاق ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ، قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : " إِنَّمَا بُعِثْتُ لأُتَمِّمَ صَالِحَ الأَخْلاَقِ." [رواه أحمد والبيهقي والحاكم وصححه]

والأخلاق في الإسلام يُجَمَّلها عقل وعلم وحلم ، قال الشاعر :

إنَّ الْمَكَارِمَ أَخْلاقٌ مُطَهـرَّةٌ * * * فَالدّينُ أَوَلُّها وَالعَقْلُ ثَانِيهَا وَالْعِلْمُ ثَالِثُها وَالحَلْمُ رَابِعُها * * * وَالْجُودُ خَامِسُها وَالْفَضْلُ سَادِيهَا وَالْبِرُّ سَابِعُها وَالصَّبْرُ ثَامِنُها * * * وَالشُكرُ تاسِعُها وَاللَينُ بَاقِيهَا [1]

سابعًا: الرقابة الدينية :

الرقابة: تعني مراقبة المسلم لجانب مولاه سبحانه في جميع أمور الحياة.

وعلى هذا فإنَّ الرقابة في أخلاقنا الإسلامية لها مدلولها المستقلُّ والمختلف عن الرقابة في مصادر الأخلاق الأخرى، حيث تكون رقابة خارجية من الغير تتمثل في رقابة السلطة، والأفراد.

(١) موسوعة الأخلاق مؤسسة الدرر السنية ١٤٣٦ هـ .

أما الرقابة في الإسلام فهي رقابة ذاتية في المقام الأول، وهي رقابة نابعة من التربية الإسلامية الصحيحة، ومن إيقاظ الضمير، فإذا كان المسلم يعلم أنَّ الله معه، وأنَّه مطلع على حركاته وسكناته، فإنَّه يكون رقيبًا على نفسه، ولا يحتاج إلى رقابة الغير عليه، يقول تعالى : ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد: ٤] ، ويقول سبحانه: ﴿يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾ [طه: ٧] ، ويقول عز وجل : ﴿إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١] فإذا قرأ المسلم هذه الآيات، وعرف معناها فإنَّه حينئذ يتيقن أنَّه إذا تمكن من الإفلات من رقابة السلطة، فإنَّه لن يتمكن من الإفلات من رقابة الله، وهذا في حدِّ ذاته أكبر ضمان لعدم الانحراف والانسياق إلى الأخلاق المذمومة.

ثامنًا: الأخلاق الإسلامية ترتبط بالجزاء الدنيوي والأخروي :

أخلاق الإسلام ترتبط ارتباطًا وثيقًا بالجزاء، سواء في الدنيا أو الآخرة، لذا وُجد الوعد والوعيد، والترغيب والترهيب.

فالأخيار من الناس: جزاؤهم عظيم في الدنيا والآخرة ، ومن ذلك ما أعده الله تعالى ﴿وَعَدَ اللّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ٧٢] .

وكذلك ما وعدهم الله به في الدنيا من الجزاء العاجل، قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق ٢-٣] وقال أيضًا ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠] .

وأما الأشرار من الناس فقد توعدهم الله عزَّ وجلَّ كما في قوله تعالى﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُؤُوسِهِمُ الْحَمِيمُ يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ وَلَهُم مَّقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ [الحج: ١٩-٢٢]

وأما جزاؤهم في الدنيا فمثاله قوله تعالى : ﴿وَضَرَبَ اللّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللّهِ فَأَذَاقَهَا اللّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ﴾ [النحل: ١١٢]

والناس من بعد ذلك يتفاوتون بمدى سبقهم وارتقائهم في سلم الفضائل.

وتفاوت الاستعدادات والطبائع، لا ينافي وجود استعداد عام صالح لاكتساب مقدار ما من أي فرع من فروع الاختصاص، سواء أكان ذلك من قبيل العلوم، أو من قبيل الفنون، أو من قبيل المهارات، أو من قبيل الأخلاق.

وفي حدود هذا الاستعداد العام، وردت التكاليف الشرعية الربانية العامة، ثم ترتقي من بعده مسؤوليات الأفراد بحسب ما وهب الله كلًّا منهم من فطر، وبحسب ما وهب كلا منهم من استعدادات خاصة، زائدة على نسبة الاستعداد العام.

ولو أنَّ بعض الناس كان محرومًا من أدنى حدود الاستعداد العام الذي هو مناط التكليف، فإنَّ التكليف لا يتوجه إليه أصلًا، ومن سلب منه هذا الاستعداد بسبب ما ارتفع عنه التكليف، ضرورة اقتران التكليف بالاستطاعة، كما أوضحت ذلك نصوص الشريعة الإسلامية.

ووفق هذا الأساس، جاءت التكاليف الشرعية بالتزام فضائل الأخلاق واجتناب رذائلها.

ووفق هذا الأساس، وضع الإسلام الخطط التربوية التي تنفع في التربية على الأخلاق الفاضلة، فالاستعداد لذلك موجود في الواقع الإنساني، وإن اختلفت نسبة هذا الاستعداد من شخص إلى آخر. وفي الإصلاح التربوي قد يقبل بعض الناس بعض فضائل الأخلاق بسهولة، ولا يقبل بعضها الآخر إلا بصعوبة ومعالجة طويلة المدى، وقد تقل نسبة استجابته . (١)

تاسعاً : الأخلاق الإسلامية غَيْرِيَّة وليست أنانية :

فالإحسان ليس سلعة تجارية للتبادل ، أساعدك علي أن تساعدني فإذا توقفت عن مساعدتك لي أحجمت عن مساعدتك ، فأخلاق الإسلام تدفع المسلم لمساعدة المحتاج دون طلب منه ودون اشتراط مكافأة علي إحسانه ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ، قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : مَنْ نَفَّسَ عَنْ مُؤْمِنٍ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ الدُّنْيَا ، نَفَّسَ اللهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا ، سَتَرَهُ اللهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ ، وَمَنْ يَسَّرَ عَلَى مُعْسِرٍ ، يَسَّرَ اللهُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ ، وَاللهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ ، وَمَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا ، سَهَّلَ اللهُ لَهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ ، وَمَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللهِ يَتْلُونَ كِتَابَ اللهِ وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ ، إِلاَّ نَزَلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ ، وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ ، وَحَفَّتْهُمُ

(١) موسوعة الأخلاق مؤسسة الدرر السنية ١٤٣٦ هـ

الْمَلاَئِكَةُ ، وَذَكَرَهُمُ اللهُ ، عَزَّ وَجَلَّ ، فِيمَنْ عِنْدَهُ ، وَمَنْ أَبْطَأَ بِهِ عَمَلُهُ ، لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ " [صحيح مسلم] .

الأخلاق والفطرة

وإذا كان الإنسان يتكون من : روح ، وقلب ، وعقل ، ونفس ، وجسد فإن هذه المكونات متكاملة رغم اختلافها ، فاختلافها اختلاف تنوع لا اختلاف تضاد .

يقول تعالى : ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤] .

﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون : ١٤] .

إن العقل لا يناقض القلب وكذلك الجسد لا يناقض الروح وإن من رأى بينها تناقضاً فأخذ بأحدها وطرح الآخر ضل وتطرف فما التطرف إلا الميل لإحدى الكفتين المتوازنتين .

ما معنى هذا ؟

معنى هذا أن الله تعالى خلق الإنسان متوازناً عقلاً وروحاً ونفساً وجسداً . ﴿صِبْغَةَ اللّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللّهِ صِبْغَةً﴾ [البقرة : ١٣٨].

﴿فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم : ٣٠] .

" كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ " [متفق عليه]

والفطرة هي التوازن بين عناصر الإنسان المختلفة في أمثل صورة لها توازن بين والجسد والروح أو بين المادية والرهبنة ، وتوازن بين العقل والقلب أو بين العلمانية والصوفية .

وكما أن الفطرة الإنسانية متوازنة فإنها خيِّرة كذلك فمن الأشياء التي يقولها العلماء اليوم أنهم وجدوا أن النظام الافتراضي لدماغ الإنسان هو الصدق! وقد وجدوا ذلك بعد تجارب كثيرة حيث إن الصدق لا يتطلب أي طاقة ، ولكن الكذب يتطلب طاقة كبيرة يصرفها الدماغ أثناء الكذب.

ولو فتشنا داخل كل خلية من خلايا الإنسان نجدها تحوي برنامج يميل بطبيعته إلى الأشياء الحسنة، والأبحاث العلمية تؤكد ذلك من خلال دراستهم لنظام المناعة في الإنسان. ولذلك فإنه لا حجة لأحد يوم القيامة، فكل إنسان في هذا الكون منذ آدم وحتى يرث الله الأرض ومن عليها أودع الله في خلايا دماغه وقلبه معلومات تدله على الله، ولذلك نجد غير المسلمين يتأثرون لكلام القرآن ويحسون كأنهم عادوا للفطرة الطبيعية بعد اعتناقهم الإسلام. (١)

الوحي والفطرة

ونور الحق الوحي وحده هو الذي يتمم نور الفطرة ؛ لأن الشرع الإلهي الإيجابي هو الذي يكمل القانون الأخلاقي الفطري المغروس في النفوس ﴿أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الخَبِيرُ﴾ [الملك:١٤] وفي القرآن الكريم يسير العقل والنقل معاً جنباً إلى جنب ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق : ٣٧] (٢)

---

(١) عبد الدائم الكحيل .

(٢) د. محمد عبد الله دراز " مختصر دستور الأخلاق في القرآن الكريم " تلخيص وإعادة صياغة وإعادة ترجمة محمد عبد العظيم علي دار الدعوة الطبعة الأولى ١٩٩٦ ص ١١ .

فالعقل كالعين لا بد لها من نور لكي ترى الأشياء وبدون النور لا ترى وإن كانت سليمة ، وكذلك العقل والشرع فالعقل كالعين والشرع هو النور .

ومع أن فطرة الإنسان خيِّرة فإن ذلك لا يعني أن الإنسان ملاك لا يحسن إلا الخير؟ بل معنى هذا أن الخير يتواءم مع طبيعته الأصيلة ؟ وأنه يُؤثر اعتناقه والعمل به كما يُؤثر الطير التحليق ؟ إذا تخلص من قيوده وأثقاله . (١)

علاقة الأخلاق بالعقيدة

يقسم العلماء الإسلام الدين إلى : عقيدة وشريعة ومعاملات وأخلاق، والأخلاق في الإسلام لها منزلة كبرى ومكانة عظمى فلماذا جعلها العلماء في المرتبة الرابعة بعد العقيدة والعبادة والمعاملات ؟!

الحقيقة أن الدين كله يشتمل على الأخلاق ففي العقيدة أخلاق فالله تعالى يصف الشرك بالظلم العظيم ﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ [لقمان:١٣] والقرآن الكريم يصف الكافرين بالظالمين ﴿الكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [البقرة:٢٥٤] وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ، قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ " أَكْمَلُ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا وَخِيَارُكُمْ خِيَارُكُمْ لِنِسَائِهِمْ خُلُقًا " [رواه الترمذي وقال حديث حسن صحيح]

" الحياءُ والإيمانُ قُرناءُ جميعًا ، فإذا رُفِعَ أحدُهما رُفِعَ الآخَرُ " [صححه الألباني]

(1) الشيخ محمد الغزالي " خلق المسلم " ص ١٩ .

" الإيمانُ بِضْعٌ وسبعونَ أو بِضْعٌ وستُّونَ شُعبةً . فأفضلُها قَول لا إلهَ إلا اللهُ . وَأَدنَاهَا إمَاطةُ الأَذَى عَنْ الطَّرِيقِ . والحياءُ شُعبةٌ من الإيمانِ" [متفق عليه]

إن العقيدة تنعكس ولا بد على أخلاق معتقدها، فالطريق لتصحيح الأخلاق هو تصحيح العقيدة فالسلوك ثمرة لما يحمله الإنسان من معتقد، وما يدين به من دين، والانحراف في السلوك ناتج عن خلل في المعتقد، فالعقيدة هي الإيمان الجازم بالله تعالى، وبما يجب له من التوحيد والإيمان بملائكته وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره، وبما يتفرع عن هذه الأصول، ويلحق بها مما هو من أصول الإيمان، وأكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم أخلاقًا؛ فإذا صحت العقيدة، حسنت الأخلاق تبعًا لذلك؛ فالعقيدة الصحيحة تحمل صاحبها على مكارم الأخلاق، وتردعه عن مساوئها.

وسيء الخلق لا أيمان له يقول النبي ﷺ : " لاَ إِيمَانَ لِمَنْ لاَ أَمَانَةَ لَهُ ، وَلاَ دِينَ لِمَنْ لاَ عَهْدَ لَهُ " [صححه الألباني]

علاقة الأخلاق بالعبادات

علاقة الأخلاق بالعبادة علاقة وثيقة فإذا كانت العبادة هي الشجرة فإن الأخلاق هي ثمرتها ، وكما أنه لا ثمر بغير شجرة فكذلك لا قيمة لشجرة لا ثمر لها ولا ظل فحسن الخلق بلا عبادة لا يثاب عليه المرء لأنه ترك الأصل وعمل الفرع ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾ [الفرقان:٢٣] إي عمدنا إلى ما عملوا من عمل من الخير كصدقة وصلة رحم وقرى ضيف وإغاثة ملهوف في الدنيا فبددناه

كالغبار ولم يثابوا عليه في الآخرة ، وإن انتفعوا به في الدنيا . فالأخلاق الحسنة لكي يقبلها الله تعالى لابد أن تكون ثمرة لإيمان مخلص بالله تعالى ، كما تكون ثمرة لعبادة صحيحة له تعالى ، فمن لم يخلص الإيمان لله ولم يؤد ما فرض الله عليه من عبادة خاب وخسر في الآخرة وإن حَسُن خلقه في الدنيا وفي ذلك يقول النبي ﷺ " إِنَّ أَوَّلَ مَا يُحَاسَبُ بِهِ الْعَبْدُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ عَمَلِهِ صَلاتُهُ فَإِنْ صَلُحَتْ فَقَدْ أَفْلَحَ وَأَنْجَحَ وَإِنْ فَسَدَتْ فَقَدْ خَابَ وَخَسِرَ ، فَإِنْ انْتَقَصَ مِنْ فَرِيضَتِهِ شَيْءٌ قَالَ الرَّبُّ عَزَّ وَجَلَّ : انْظُرُوا هَلْ لِعَبْدِي مِنْ تَطَوُّعٍ فَيُكَمَّلَ بِهَا مَا انْتَقَصَ مِنْ الْفَرِيضَةِ ؟ ثُمَّ يَكُونُ سَائِرُ عَمَلِهِ عَلَى ذَلِكَ " [صححه الألباني] .

لذا لا عجب أن جعل القرآن الكريم والأحاديث الشريفة الحكمة من العبادة التخلي عن سوء الخلق والتحلي بحسنها فالصلاة وهي عماد الدين والركن الثاني من أركان الإسلام يجعل الله تعالى الحكمة منها التخلي عن الفحشاء والمنكر والتحلِّي بذكر الله ومراقبته في السر والعلن ﴿اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلاةَ إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَى عَنِ الفَحْشَاءِ وَالمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ وَاللهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ [العنكبوت:٤٥] ومن أدَّى الصلاة صورة بلا معنى أو تظاهر بأدائها دون أن يتحلى بأخلاقها فكأنه لم يصلِّ وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : " رُبَّ قائِمٍ حَظُّهُ مِنَ القِيامِ السَّهَرَ " [صححه الألباني]

وعن عبد الله بن مسعود قال : " مَنْ لَمْ تَأْمُرْهُ صَلاتُه بِالمَعْرُوفِ وَتَنْهَاهُ عَنْ المُنْكَرِ لَمْ يَزْدَدْ مِنْ اللهِ إلا بُعْدًا " [صحيح الطبراني] .

والزكاة الركن الثالث من أركان الإسلام ليست ضريبة كالتي تفرضها الدول نظير خدمات تؤديها للناس إنما هي عبادة ثمرتها تَطهير نفوس

المُـزكين والمتـصدقين والمنفقـين مـن البخـل والـشح والأثـرة، وتَطهيـر الآخذين لها من الفقراء والمساكين والمحتاجين من الحقد والغِل والحسد، كما تُطهر مال الأغنياء مما لحق به من سُحْت فيبارك الله فيه وينميه لذلك فلا غرو أن يكون معنى الزكاة في اللغة : الطَّهارةُ والصَّلاح كما أن معناها البَرَكة والنَّماءُ . كذلك معناها في القرآن الكريم يقول تعالى ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾ [التوبة:١٠٣] .

والمزكي موعودٌ من الله تعالى بالبَرَكةِ والنَّماءِ نظير تخليه عن البخل وتحليه بالكرم وتخليه عن الأثرة وتحليه بالإيثار يقول تعالى : ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ [سبأ : ٣٩] ، ويقول النبي ﷺ " ما نقصَ مالٌ من صدقةٍ " [صحيح الترمذي] .

فإذا جئنا إلى الركن الرابع من أركان الإسلام وهو الصوم فإننا نجد الحكمة منهن تزكية النفس وتحلِّيتها فالصوم يزكي نفس الصائم من الرفث والفسوق والغضب ويحليها بتقوى الله وحسن القول والعمل فهو بحق جُنة (وقاية) من أمراض النفس والبدن يقول تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة:١٨٣] ويقول النبي ﷺ " الصيامُ جُنَّةٌ ، وإذا كان يومُ صومِ أحدِكُم فلا يَرْفُثْ ولا يَصْخَبْ ، فإنْ سابَّه أحدٌ أو قاتَلَهُ فلْيقلْ : إنِّي امْرُؤٌ صائمٌ " [البخاري] .

والصوم كبح لجماح النفس عن المعاصي وسوء الخلق ؛ فسوء الخلق يفسد الصوم يقول النبي ﷺ : " مَن لَم يدَع قَولَ الزُّورِ والعمَلَ بِه والجَهلَ ، فليسَ للَّهِ حاجَةٌ أن يدَعَ طعامَه وشرابَهُ " [البخاري] ويقول

النبي ﷺ " ورُبَّ صائمٍ حَظُّهُ مِنَ الصِّيامِ الجوعُ والعَطَشُ " [صححه الألباني] وعن عبيد مولى رسول الله ﷺ قال : " أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ أتى على امرأتيْنِ صائمتيْنِ تغتابانِ الناسُ ، فقال لهما : قِيئا ، فقاءَتا قيحًا ودمًا ولحمًا عبيطًا ، ثم قال ﷺ : ها إنَّ هاتيْنِ صامتا عنِ الحلالِ وأفطرتا على الحرامِ " [رواه البيهقي وابن عساكر بسند ضعيف]

أما الركن الخامس من أركان الإسلام وهو الحج فإن الحكمة منه أخلاقية كسائر العبادات فالحاج لا بد أن يترك الفاحش من القول والقبيح من الفعل والجدال بالباطل ويتحلى بتقوى الله وفعل الخيرات : ﴿ الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلاَ رَفَثَ وَلاَ فُسُوقَ وَلاَ جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللّهُ وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ ﴾ [الحج: ١٩٧] ويقو النبي ﷺ : " مَن حجَّ هذا البيتَ، فلم يَرفُثْ،ولم يَفسُقْ، رجَع كيومَ ولدَتْه أمُّه "[متفق عليه]

وهكذا جعل القرآن الكريم والحديث الشريف الحكمة من العبادات والثمرة المرجوة منها هي التحلي بحسن الخلق والتخلي عن سوئه .

ومع ما لحسن الخلق من أهمية عظيمة فإن كثيراً من الناس من يفصل جسد العبادة عن روحها ، يفصل أداء العبادة عن أخلاقها فيسيء الخُلُق مع الناس ، مما يرد عليه عبادته فلا تقبل ويحرمه ثوابها فلا يثبت وإن قبلت عبادته فسوف يبدد سوء خلقه ما حصَّل من حسنات بأداء العبادة ويصبح يوم القيامة مُفْلِساً من الحسنات ويدخل النار فعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : " أتدرون ما المفلِسُ ؟ قالوا : المفلِسُ فينا من لا درهمَ له ولا متاعَ . فقال : إنَّ المفلسَ من أمَّتي ،

يأتي يومَ القيامةِ بصلاةٍ وصيامٍ وزكاةٍ ، ويأتي قد شتم هذا ، وقذف هذا ، وأكل مالَ هذا ، وسفك دمَ هذا ، وضرب هذا . فيُعطَى هذا من حسناتِه وهذا من حسناتِه . فإن فَنِيَتْ حسناتُه ، قبل أن يقضيَ ما عليه، أخذ من خطاياهم فطُرِحت عليه . ثمَّ طُرِح في النَّارِ " [صحيح مسلم] .

من صور الاستهزاء بآيات الله

سنَّت الشريعة الإسلامية مجموعة من الأحكام . لو أحسن تطبيقها أقيم مجتمع سعيد وقوي ومتضامن ترفرف عليه العدالة والرحمة . ولما كانت أعدل الشرائع تصبح عاجزة بدون الإرادة الطيبة لدى الذين تنطبق عليهم أو المطلوب منهم تطبيقها ، فإن أسوأ المواقف وضرها أن يتظاهر الناس تجاهها بمظهر الورع متمسكين بشكلية أحكامها في حين أنهم يتصرفون بما يؤدي إلى صرف غاياتها فتصبح ظالمة ومنفرة .

وهو ما أطلق عليه القرآن الكريم ﴿وَلا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللهِ هُزُوًا﴾ [البقرة:٢٣١] بمناسبة بعض المصالحات الزوجية التي تتسم بسوء نية بقصد سوء استخدام الحق الممنوح للرجال فيجعلون منه أداة كيد لزوجاتهم ، سواء بتأخير قرار الطلاق خلال المدة المحددة لهم ، أو بالنطق به آخر لحظة ، أو يعيدوا زوجاتهم بقصد تطليقهن من جديد ثم إمساكهن معلقات لمجرد إطالة قيود تسريحهن ومنعهن من عقد زواج جديد .

وتجاه مثل هذه النيات الآثمة يستخدم القرآن في تحذيره ألفاظاً قاسية كقوله تعالى ﴿وَلا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِتَعْتَدُوا وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَلا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللهِ هُزُوًا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ

مِنَ الكِتَابِ وَالحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ وَاتَّقُوا اللهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:٢٣١] وكقوله في إنذار الموصين الذين يقصدون حرمان ورثتهم الشرعيين ﴿مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَى بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ وَصِيَّةً مِنَ اللهِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾ [النساء:١٢] ولهذا سن النبي ﷺ القاعدة الشاملة " لا ضررَ ولا ضِرارَ " [حسنه النووي] (١)

ومن صور الاستهزاء بآيات الله والإساءة إلى دينه وتشويه صورة المسلمين أن أداء بعض الناس للعبادات يُسِيء من أخلاقهم بدلاً من تحسينها حيث يظنون أن مجرد أدائهم للعبادة ضمان لغفران الذنوب مهما عظمت ودخول الجنة مهما أذنبوا فيظنون أن صلاتهم وإن لم تنهم عن الفحشاء والمنكر ، وصيامهم وإن لم يثمر تقوى، وزكاتهم وإن لم تطهرهم ، وصومهم عن الطعام والشراب والجماع وإفطارهم على الرفث والفسوق والسباب ، وحجِّهم وإن رفثوا فيه وفسقوا وتجادلوا سوف ينجيهم من عذاب الله ويدخلهم جناته ، فيتوهَّمون أن مجرد الامتناع عن الطعام والشراب في رمضان أو في يوم عرفة أو عاشوراء يغفر لهم ذنوبهم ، وأن أداءهم الحج وإن كان بمال حرام وقصدوا به وجه الناس يعيدهم كيوم ولدتهم أمهاتهم ، وهم يتجاهلون أن الغاية من بعثة النبي ﷺ هي إتمام محاسن الأخلاق ، وأن الدين حسن الخلق ، وأن الدين المعاملة ، وأن امرأة دخلت النار بسبب إيذائها لجيرانها بلسانها رغم كثرة صلاتها وصيامها وصدقتها " قَالَ رجلٌ يا رسولَ اللهِ إنَّ فلانةً تُكثِرُ من صلاتِها وصدقتِها وصيامِها غيرَ أنَّها تُؤذي جيرانَها بلسانِها قال هي في النَّارِ قال يا رسولَ اللهِ فإنَّ فلانةً يَذكرُ من قلَّةِ صيامِها وصلاتِها وأنَّها

(1) د. محمد عبد الله دراز " مختصر دستور الأخلاق " مرجع سابق ص ١٧٨ .

تتصدَّقُ بالأثوارِ من الأقِطِ ولا تُؤذي جيرانَها قال هي في الجنَّةِ " [صححه الألباني] وأن لا أيمان لمن لا حياء له " الحياءُ والإيمانُ قُرناءُ جميعًا ، فإذا رُفِعَ أحدُهما رُفِعَ الآخَرُ. " [صححه الألباني] .

وأن الكذب يهدي إلى الفجور وأن الفجور يهدي إلى النار " إنَّ الصِّدقَ يَهدي إلى البِرِّ ، وإنَّ البِرَّ يَهدي إلى الجنَّةِ ، وإنَّ الرَّجُلَ ليَصدُقُ حتَّى يَكونَ صدِّيقًا ، وإنَّ الكذِبَ يَهدي إلى الفُجورِ ، وإنَّ الفجورَ يَهدي إلى النَّارِ ، وإنَّ الرَّجُلَ ليَكذِبُ ، حتَّى يُكتَبَ عندَ اللَّهِ كذَّابًا" [متفق عليه] .

والمُتكبر الذي ينكر الحق ويحتقر الناس لا يدخل الجنة " لا يدخلُ الجنَّةَ مَن كان في قلبِه مثقالُ ذرَّةٍ من كِبرٍ . قال رجلٌ : إنَّ الرَّجلَ يحبُّ أن يكونَ ثوبُه حسنًا ونعلُه حسنةً . قال : إنَّ اللهَ جميلٌ يحبُّ الجمالَ . الكِبرُ بَطرُ الحقِّ وغمطُ النَّاسِ " [صحيح مسلم] .

وأن الذي يغش رعيته تحرم عليه الجنة " ما من عبدٍ يسترعيهِ اللَّهُ رعيَّةً يموتُ يومَ يموتُ وَهوَ غاشٌّ لرعيَّتِهِ إلا حرَّمَ اللَّهُ عليهِ الجنَّةَ "
[صحيح مسلم]

وأن قاطع الرحم يقطعه الله " قال اللهُ عزَّ وجلَّ : أنا اللهُ ، وأنا الرَّحْمَنُ، خَلَقْتُ الرَّحِمَ ، وشَقَقْتُ لها اسْمًا مِنَ اسْمِي ، فمَنْ وصَلَها وصَلْتُهُ ، ومَنْ قَطَعَها قَطَعْتُهُ " [قال الألباني صحيح لغيره]

وإن خائن الأمانة لا أيمان له ، وخائن العهد لا دين له : " وأن لاَ إِيمَانَ لِمَنْ لاَ أَمَانَةَ لَهُ ، وَلاَ دِينَ لِمَنْ لاَ عَهْدَ لَهُ "[صححه الألباني]

إن حقيقة الأخلاق الإسلامية لا تستهدف فقط إقامة العدالة في الدنيا، وإنما الغاية كذلك سمو أشخاصنا ، والارتفاع بها فوق المنافع الأرضية

والحياة الحيوانية، وأن الغاية العامة المقصودة من الشرع الإسلامي هي صحة النفس ، فإن تقوى الله تعالى تتركز حولها تقريباً جميع الأحكام القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة . (١)

وفي مقابل إن سوء الخلق يجلب سخط الله ورسوله ويمحو الدرجات ويورد صاحبه النار فإن حسن الخلق يجلب محبة الله ورسوله ويمحو الله به الخطايا ويرفع الدرجات ويدخل صاحبه أعلى الجنان .

***

(1) د. مصطفى بن محمد حلمي في تقديمه لكتاب " مختصر دستور الأخلاق " مرجع سابق .